

## الفصل الثاني

### حياة ابن حزم

١ - أسرته:

تدل روايات المؤرخين عن أسرة ابن حزم على مكانة مرموقة، وعراقة في النسب، فقد قال الفتح بن خاقان: «بنو حزم فتية علم وأدب، ونبية مجد وحسب، ولى الوزارة منهم غير واحد، ونالوا بقرطبة جاهها عريضا...»<sup>(١)</sup>. وكان والده أحمد بن سعيد من عقلاء الرجال الذين نالوا حظا وافرا من الثقافة والعلم، ولذلك كان يعجب ممن يلحن فى الكلام، ويقول: «إنى لأعجب ممن يلحن فى مخاطبة، أو يجيء بلفظة قلقة فى مكاتبة، لأنه ينبغى له إذا شك فى شىء أن يتركه، ويطلب غيره، فالكلام أوسع من هذا»<sup>(٢)</sup> ومن نصائحه التى أسداها لابنه - أبى محمد - وكان يرددها قوله:

إذا شئت أن تحيا غنيا فلا تكن على حالة إلا رضيت بدونها<sup>(٣)</sup>

فهو بحق - كما ذكر ابن بشكوال - «كان من أهل العلم والأدب والخبر، وكان له فى البلاغة يد قوية» ولا جرم أن هذه الخلال الكريمة التى أضفتها الأقدار على والد ابن حزم هى التى أهلتها لمنصب الوزارة الذى اختاره له ابن أبى عامر الذى عرف بدقة حكمه، ونفوذ بصيرته فى الحكم على الرجال، وتمييز جواهرهم<sup>(٤)</sup>. توفى أبوه كما يروى المقرئ عن ابن حيان بذى القعدة سنة اثنتين وأربعمائة بعد أن ساءت حالته وتتابعت عليه المحن والنكبات والتفريم فى آخر حياته، ولا يبعد أن يكون مات قهرا بعد ذلك العز الشامخ<sup>(٥)</sup>.

(١) الفتح بن خاقان: مطمح الأنفس، وانظر أيضا نفع الطيب ١/ ٢٩٠.

(٢) الحميدى: جذوة المقتبس ص ١٢٦ (الدار القومية سنة ١٩٦٦).

(٣) المرجع السابق ص ١٢٦.

(٤) انظر الحاجرى: ابن حزم ص ٣٢.

(٥) سعيد الأفغانى: ابن حزم ص ٢١ - ٢٢.

وكان لابن حزم أخ أكبر منه سنا، يُكْنَى بأبى بكر، تزوج بعاتكة بنت قند، صاحب الثغر الأعلى أيام المنصور بن أبى عامر، ويصف ابن حزم زوجة أخيه هذه فيقول.. «وكانت لا مرمى وراءها فى جمالها، وكريم خلالها، ولا تأتى الدنيا بمثل فضائلها»<sup>(١)</sup>.

ويبدو أن ابن حزم لم يكن له من الأخوة غير أبى بكر هذا، لأنه ألف كتابا - مفقودا - عنوانه: «تواريخ أعمامه وأبيه وأخيه» فقد نص على أخيه بالإفراد وليس بالجمع<sup>(٢)</sup> وكان من النابهين فى هذه الأسرة - أيضا - فى ذلك الوقت أحمد ابن عبد الرحمن بن سعيد بن حزم والد أبى المغيرة عبد الوهاب بن حزم، ويصفه صاحب «المطمح» فى سياق الكلام عن ابنه المغيرة بأنه فقيه علم وأدب، ونبيه مجد وحسب<sup>(٣)</sup> وأصل أسرة ابن حزم - قبل أن تهاجر إلى قرطبة - من قرية «منت ليشم» وتسمى الآن منتيخر أو بدون الرءاء.

وهى قرية تقع فى مقاطعة «ولبة» جنوب غرب الأندلس، وقد ذكر ياقوت: أنها كانت ملكه وملك سلفه من قبله<sup>(٤)</sup>.

## ٢ - مولده:

ولد الإمام أبو محمد على بن حزم فى الجانب الشرقى من قرطبة فى آخر يوم من أيام رمضان سنة أربع وثمانين وثلاثمائة وكانت ولادته فى ذلك اليوم قبل طلوع الشمس وبعد سلام الإمام من صلاة الصبح<sup>(٥)</sup> وهذا التاريخ يوافق اليوم السابع من نوفمبر سنة ٩٩٤ من السنة الميلادية<sup>(٦)</sup>. وقد ولد فى بيت والده الوزير بقرطبة وكان قد مضى على الوالد ثلاث سنوات فى وزارة الحاجب المنصور.

(١) ابن حزم: طوق الحمامة ص ١٥٤.

(٢) عبد الحليم عويس: ابن حزم ص ٤١، وراجع: (مبحث تراث ابن حزم المفقود).

(٣) عبد الكريم خليفة: ابن حزم ٢٦.

(٤) ياقوت: معجم الأدباء ١٢ / ٢٤٠.

(٥) وفيات الأعيان ١٣/٣ ومعجم الأدباء ١٢ / ٢٣٧ والصلة لابن بشكوال ٢ / ٤١٠ والنفح للمقرى ١ /

٣٥٩.

(٦) دائرة المعارف الإسلامية (مادة ابن حزم) ١ / ٢٥٤. طدار الشعب.

وقد كتب صاحبنا «أبو محمد» هذا التاريخ إلى القاضي صاعد بن أحمد الأندلسي بخط يده، وهو لا شك بهذا التعيين الدقيق - يدل على مكانة تلك الأسرة ومدى ما كانت عليه من تحضر ورقى، جعلها تهتم بأخبار مواليدها هذه العناية البالغة.

٣ - نسبه:

اسمه على بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس الأموي. وجدته يزيد أول من أسلم من أجداده، وأصله من فارس، وجدته خلف<sup>(١)</sup> أول من دخل الأندلس من آباءه<sup>(٢)</sup>.

أما كنيته التي وردت في كتابه «الفصل» وغيره من كتبه وعرف بها فهي «أبو محمد» وشهرته «ابن حزم».

وهذا النسب الذي ذكره ابن خلكان وغيره من المؤرخين كالمقري والذهبي والحميدى وابن العماد يدل على أنه ينتمى لأسرة فارسية؛ إذ إن جده الأقصى في الإسلام - وهو يزيد - كان مولى ليزيد بن أبي سفيان أخى معاوية الذى أسلم عام الفتح وولاه أبو بكر إمرة الجيش الأول الذى ذهب لفتح الشام<sup>(٣)</sup>.

٤ - نشأته:

نشأ ابن حزم نشأة مترفة تحوطبها النعمة، وتلازمها الراحة والترف، وذلك شأن أبناء الوزراء والأمراء الذين يجدون كل وسائل المتع والبذخ ميسرة لهم، فلا ضيق في رزق، ولا حاجة إلى مال.. وقد تلمس شيئاً من هذا النعيم الذى كان يتقلب في أعطافه ابن حزم من خلال كتابه «طوق الحمامة» الذى يحدثنا فيه عن سعة داره

(١) هو خلف بن معدان، جاء إلى الأندلس في جيش الفاتح مع موسى بن نصير سنة ٩٣ هـ وقيل قدم إليها في معية عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) سنة ١٣٨ هـ (انظر ابن حزم مؤرخاً ٣٦).

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ١٣/٣.

(٣) انظر أبا زهرة: ابن حزم ٢٣ وعبد الحليم عويس: ابن حزم الأندلسى مؤرخاً ٣٦.

وما وعت من خدم وجواري، فيقول في معرض حديثه عن جارية عرفها في صباه: «فلعهدى بمصطنع كان في دارنا لبعض ما يصطنع له في دور الرؤساء، تجمعت فيه دخلتنا، ودخلة أخی رحمه الله، من النساء ونساء فتياتنا ومن لاث بنا من خدمنا، ممن يخف موضعه، ويلطف محله، فلبثن صدرا من النهار، ثم تنقلن إلى قصبه كانت في دارنا، مشرفة على بستان الدار، ويطلع منها على جميع قرطبة وفحوصها<sup>(١)</sup>، مفتحة الأبواب، فصرن ينظرن من خلال الشراحيب وأنا بينهن، فإنى لأذكر أنى كنت أقصد نحو الباب الذى هى فيه، أنسا بقربها، متعرضا للقرب منها فما هو إلا أن ترانى فى جوارها فتترك ذلك الباب، وتقصد غيره فى لطف حركة، فأتعمد أنا القصد إلى الباب الذى صارت إليه، فتعود إلى مثل ذلك الفعل من الزوال إلى غيره، وكانت قد علمت كلفى بها<sup>(٢)</sup>... إلخ». وكانت نعمة والد ابن حزم - على ما يظهر- فاشية، وغناه مستفيضاً فكانت له دور محدثة ودور قديمة: «ثم انتقل أبى رحمه الله من دورنا المحدثه بالجانب الشرقى من قرطبة، فى ربض الزاهرة، إلى دورنا القديمة فى الجانب الغربى من قرطبة ببلاط مغيث، فى اليوم الثالث من قيام أمير المؤمنين محمد المهدي بالخلافة، وانتقلت أنا بانتقاله، وذلك فى جمادى الآخرة سنة تسع وتسعين وثلاثمائة<sup>(٣)</sup>.

ولعل إجماع المؤرخين على أن القرية التى مات فيها وكانت ملكه وملك آباءه من قبله ما يدلنا على أنه كان فى رغد من العيش، وسعة فى الرزق حتى لقى ربه. ويطيب لنا أن نترك «صاحبنا» يحدثنا عن حياته المترفة، واصفا إحدى نزواته مع جماعة من أصدقائه فيقول: «تنزهت أنا وجماعة من إخوانى من أهل الأدب والشرف إلى بستان لرجل من أصحابنا، فجلسنا ساعة، ثم أفضى بنا القعود إلى مكان دونه يتمنى فتمددنا فى رياض أريضة، وأرض عريضة، للبصر فيها منفسح وللنفس

(١) الفحوص: الوديان والسهول والجبال المخضرة التى تحيط بقرطبة.

(٢) طوق الحمامة: ص ١٤٥ تحقيق الدكتور الطاهر أحمد مكي.

(٣) المرجع السابق: ١٤٦ - ١٤٧.

لديها مسرح، بين جداول تطرد كأباريق اللجين، وأطيّار تغرد بألحان تترى بما أبدعه معبد<sup>(١)</sup> والغرييض، وثمار مهدلة قد ذلت للأيدي، ودنت للمتناول، وظلال مظلة تلاحظنا الشمس من بينها، فتتصور بين أيدينا كرقاع الشطرنج، والثياب المدبجة، وماء عذب يوجدك حقيقة طعم الحياة، وأنهار متدفقة كبطون الحيات، لها خريبر يقوم ويهدأ، ونواوير مونقة، مختلفة الألوان، تصفحها الرياح الطيبة النسيم، وهواء سجسج، وأخلاق جلاسى تفوق كل هذا، فى يوم ربيعى ذى شمس ظليلة، تارة يغطيها الغيم الرقيق، والمزن اللطيف، وتارة تتجلى، فهى كالعذراء الخفرة، والخريدة الخجلة، تتراءى لعاشقها من بين الأستار ثم تغيب فيها، حذر عين مراقبة، وكان بعضنا مطرقا كأنه يحدث أخرى..»<sup>(٢)</sup>.

بيد أن هذا النعيم الخلاب لم يدم لهذا الغلام، لقد قلب له الدهر ظهر المجن فكان البؤس وكانت المحن، إذ كان أبوه وزيرا، وقديما قال الحكماء «من أكل من مال السلطان فقد سعى بقدمه على دمه»<sup>(٣)</sup> خصوصا عندما تتبدل الأحوال بتغير الحكم وخروجه من سلطان إلى سلطان.. وابن حزم يقص علينا كيف تبدل الحال بعد الحال، وكيف ذاق كأس الحياة وآلامها، وهو فى ريعان شبابه فيقول: «شغلنا بعد قيام أمير المؤمنين هشام المؤيد بالنكبات، وباعتداء أرباب دولته، وامتحننا بالاعتقال والتغريب والإغرام الفادح والاستتار، وأرزمت الفتنة وألقت باعها وعمت الناس وخصتنا، إلى أن توفى أبى الوزير رحمه الله، ونحن فى هذه الأحوال بعد العصر يوم السبت لليلتين بقيتا من ذى القعدة عام اثنتين وأربعمائة»<sup>(٤)</sup>.

(١) معبد، أبو عياد معبد بن وهب، زنجى الأب، مولى لعبد الرحمن بن قطن فى المدينة المنورة، وعمل فى شبابه صيرفيا، ثم احترف الموسيقى فيما بعد، وأصبح مغنى الأمراء من بنى أمية فى المشرق، ويصفه إسحاق الموصلى بأنه «من أحسن الناس غناء، وأجودهم صنعة، وأحسنهم خلقا، وهو فحل المغنيين توفى عام ١٢٥ هـ».

الغرييض: ويكنى أبا يزيد، أو أبا مروان، والغرييض لقب معناه المغنى المجيد، وهو من أصل بربرى. (راجع هامش الطوق ص ١٣٣).

(٢) ابن حزم: طوق الحمامة ١٣٣ - ١٣٤.

(٣) أبو زهرة: ابن حزم ص ٢٩.

(٤) ابن حزم: طوق الحمامة ص ١٤٧.

وقد أضيف إلى هذه النوازل المجتمعة أولى كوارث ابن حزم العائلية وهي وفاة أخيه أبى بكر الذى لم نعرف له أبا غيره، فى الطاعون الواقع بقرطبة فى شهر ذى القعدة سنة إحدى وأربعمائة وهو ابن اثنتين وعشرين سنة<sup>(١)</sup>. ثم كانت النازلة العائلية الثانية - قاصمة الظهر - هى وفاة والده الوزير أحمد بن سعيد بتأثير النكبات التى حلت به وببيته، وذلك فى ذى القعدة سنة ٤٠٢ هـ - فاتصلت حال ابن حزم بعده بالنكبات، وخلال العام القالى (٣٠٣ هـ) حلت بابن حزم النازلة العائلية الثالثة، إذ ماتت جارية له يصفها بقوله: كانت فيما خلا اسمها «نعم» وكانت أمنية المتمنى، وغاية الحسن خُلُقًا وخُلُقًا، وموافقة لى، وكنت أبا عذرها، وكنا قد تكافأنا المودة، ففجعتنى بها الأقدار، واخترمتها الليالى ومر النهار، وصارت ثالثة التراب والأحجار.

وسنئى حين وفاتها دون العشرين سنة، وكانت هى دونى فى السن، فلقد أقمت بعدها سبعة أشهر لا أتجرد عن ثيابى، ولا تفتقر لى دمة على جمود عينى، وقلة إسعادها، وعلى ذلك فوالله ما سلوت حتى الآن، ولو قبل فداء لفديتها بكل ما أملك من تالد وطارف<sup>(٢)</sup>.

وقد استمرت الإحن والفتن، حتى اضطروا إلى الخروج من قرطبة إلى المرية، «ثم ضرب الدهر ضرباته، وأجلينا عن منازلنا، وتغلب علينا جند البربر فخرجت عن قرطبة أول المحرم سنة أربع وأربعمائة، وغابت عن بصرى بعد تلك الرؤية الواحدة ستة أعوام وأكثر»<sup>(٣)</sup>.

تلك هى المرحلة الأولى من حياة ابن حزم، وهى مرحلة تمتد خمسة وعشرين عاما مختلفة الأطوار، ذاق فيها ابن حزم حلو الحياة ومرها، وبدأت صور حياته فى قصر أبيه تتلاشى أمام المحن المتتالية، ما كان منها بسبب السياسة وما كان منها

(١) ابن حزم: الطوق ص ١٥٤.

(٢) المرجع السابق: ص ١٢٤.

(٣) المرجع السابق: ص ١٤٧.

من صنع القدر<sup>(١)</sup>.. وسوف نرى فيما بعد كيف أثرت هذه الأطوار المختلفة في تكوين ابن حزم باعتباره مؤرخا للأديان..

٥- شيوخه:

كان أول سماع ابن حزم من أبي عمر أحمد بن محمد بن الجسور قبل الأربعمائة<sup>(٢)</sup>، وكان شيخه في المنطق محمد بن الحسن المذحجي المعروف بابن الكتاني، وكان أديبا شاعرا طبيبا له في الطب رسائل، وكتب في الأدب، ومات بعد الأربعمائة<sup>(٣)</sup>، وابن حزم يدعوه بأستاذه حين يعرض في رسالته في فضل علماء الأندلس لذكر كتبه في الطب ويصفها بأنها «كتب رفيعة حسان» أو رسائله الفلسفية ويصفها بأنها «مشهورة متداولة، وتامة الحسن، فائقة الجودة، عظيمة المنفعة<sup>(٤)</sup>» وقد صحب ابن حزم حين شب عن الطوق أبا علي الحسين الفاسي الذي كان قدوة طيبة في خلقه ودينه، ويقول عنه ابن حزم: «أحسبه كان حضورا لأنه لم تكن له امرأة قط، وما رأيت مثله جملة علما وعملا، ودينا وورعا<sup>(٥)</sup>».

ويذكر صاحب معجم الأدباء أن ابن حزم ابتدأ دراسة الفقه على الشيخ الفقيه أبي محمد ابن دحون الذي كان عليه مدار الفتيا في قرطبة<sup>(٦)</sup>.

كما تلقى أيضا الفقه والحديث على عبد الله الأزدي المعروف بابن الفرضي، وهذا الشيخ «لم ير مثله بقرطبة في سعة الرواية، وحفظ الحديث، ومعرفة الرجال والافتتان في العلوم، إلى الأدب البارع، والفصاحة المطبوعة، قل ما كان يلحن في جميع كلامه من غير حوشية، مع حضور الشاهد والمثل، فيما يقول ابن حيان عنه<sup>(٧)</sup>».

(١) عبد الحليم عويس: ابن حزم مؤرخا ص ٥٠.

(٢) الحميدي: جذوة المقتبس ص ١٠٧ (الدار المصرية للتأليف والترجمة).

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان ١٣/٣.

(٤) فضل الأندلس لابن حزم ص ٣٦٥، ٣٦٦.

(٥) طوق الحمامة ص ١٦٦.

(٦) معجم الأدباء لياقوت ١٢/٢٤٢ ط دار المأمون، وانظر ابن حزم في الطوق ص ١٥٩.

(٧) ابن بشكوال: الصلة ١/٢٥٣.

وكان من شيوخ ابن حزم أبو محمد الرهونى، عبد الله بن يوسف بن نامى، الذى «كان رجلا صالحا خيرا فاضلا، لا يقف بباب أحد مجوداً للقرآن، قديم الطلب، حسن الخلق، جيد العقل، خاشعا، كثير البكاء، متحريرا فيما يسمع متحفظا به، ورعا فى دينه»<sup>(١)</sup> وذكر من شيوخه مسعود بن سليمان بن مفلت أبو الخيار، وعنه - على ما يظهر - أخذ القول بالظاهر حتى صار فيه إماما متفردا، قال الضبى: «مسعود.. فقيه عالم زاهد يميل إلى الاختيار والقول بالظاهر، ذكره أبو محمد بن حزم، وكان أحد شيوخه»<sup>(٢)</sup>.

كما يذكر لنا ابن حزم فى كتابه «طوق الحمامة» أنه قرأ معلقة طرفة بن العبد مشروحة فى المسجد الجامع بقرطبة على أبى سعيد الفتى الجعفرى<sup>(٣)</sup> فعلمنا من هذا الخبر أن حلقات الأدب كانت حافلة فى المسجد بالأندلس لا يتخرجون فيها من رواية الشعر وشرحه ولا يتأثمون..

وقد درس الجدل والكلام على أستاذه أبى القاسم عبد الرحمن بن أبى يزيد المصرى الذى ذكره ابن حزم بقوله: «وأذكر فى مثل هذا - إبَّان الاضطرابات السياسية - أنى كنت مجتازا فى بعض الأيام بقرطبة فى مقبرة باب عامر فى لمة من الطلاب... ونحن نريد مجلس الشيخ أبى القاسم عبد الرحمن بن أبى يزيد المصرى بالرصافة أستاذى رحمته الله»<sup>(٤)</sup>.

وله غير هؤلاء شيخ كثيرون، فقد أجمع المترجمون له على أنه سمع سماعا كثيرا وذكر هو نفسه أنه طلب الحديث على سائر شيوخ المحدثين بقرطبة، ووصفوه بالإكثار من علوم الشريعة والأدب، وقرطبة إذ ذاك تغص بالفحول من العلماء...<sup>(٥)</sup>.

(١) طه الحاجرى: ابن حزم ص ٧١ - ٧٢.

(٢) بغية الملتمس: ص ٤٦٧.

(٣) طوق الحمامة: ص ١٠٠.

(٤) المرجع السابق: ص ١٠٢.

(٥) د. طه الحاجرى: ابن حزم صورة أندلسية ص ٣٦.

١ - من أشهر تلاميذ ابن حزم محمد بن أبي نصر فتوح الأزدي الحميدي الأندلسي الميورقي (ت ٤٨٨ هـ) صاحب كتاب «جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس». يقول ابن خلكان «الحميدي روى عن أبي محمد علي بن حزم الظاهري واختص به، وأكثر من الأخذ عنه، وشهر بصحبته»<sup>(١)</sup> «ويعترف الحميدي لأستاذه بالفضل في نهاية تعريفه بتاريخ الأندلس الذي بلغ ستا وثلاثين صفحة من كتاب جذوة المقتبس فيقول: «هذا آخر ما استفدنا أكثره من شيخنا أبي محمد علي بن أحمد رحمه الله»<sup>(٢)</sup>.

٢ - وكان من أخص تلاميذ ابن حزم - أيضا - القاضي أبو القاسم صاعد بن أحمد الأندلسي المتوفى سنة ٤٦٣ هـ وكتابه «طبقات الأمم» يشهد في منهجه ومادته بأنه متأثر تأثرا كبيرا بابن حزم<sup>(٣)</sup>.

٣ - ومن تلاميذ ابن حزم: أبو محمد: عبد الله بن محمد بن العربي الذي حكى تلمذته لابن حزم في هذه العبارة التي يوردها ياقوت عن أبي بكر، محمد بن طرخان قال: «وقال لي الوزير الإمام أبو محمد بن العربي: صحبت الشيخ الإمام أبا محمد علي بن حزم سبعة أعوام، وسمعت منه جميع مصنفاته، حاشا المجلد الأخير من كتاب الفصل، وهو يشتمل على ستة مجلدات من الأصل الذي قرأنا منه، فيكون الفائت نحو السدس، وقرأنا من كتاب الإيصال أربعة مجلدات.. ولم يفتني من تأليفاته شيء سوى ما ذكرته من الناقص، وما لم أقرأه من كتاب الإيصال، وكان عند الإمام أبي محمد بن حزم كتاب الإيصال في أربعة وعشرين مجلدا، بخط يده، وكان في غاية الإدماج...»<sup>(٤)</sup>.

(١) وفيات الأعيان: ترجمة الحميدي.

(٢) الحميدي: جذوة المقتبس ص ٣٦.

(٣) عبد الحلیم عويس ص ١٨٤.

(٤) ياقوت: معجم الأدباء ١٢/٢٤٢ - ٢٤٣

٤ - كما نشر علمه بالمشرق ولده أبو رافع، وروى عنه ابنه: أبو أسامة يعقوب، وأبو سليمان المصعب<sup>(١)</sup>. هؤلاء أبرز تلاميذ ابن حزم تتلمذوا عليه وتأثروا به، ولسنا في مجال الإحاطة والحصص فما أكثر الذين نهلوا من علمه، وتعلموا عليه أو على كتبه إلى يوم الناس هذا..

٧ - علمه:

اشتهر ابن حزم بعلمه الغزير، وثقافته الواسعة، ولم ينكر تلك المنزلة أحد من معاصريه، سواء أكانوا مؤيدين له أم كانوا مناوئين.. فهو بحق موسوعة علمية أحاطت بأكثر المعارف التي كانت في عصره في تمكن وإحاطة، تدهش الألباب، وتطلق ألسنة العلماء بالمدح والثناء: يقول الإمام الذهبي<sup>(٢)</sup> «وكان إليه المنتهى في الذكاء والحفظ وسعة الدائرة في العلوم» وقد شهد له الغزالي بأن كتابه (في أسماء الله الحسنى) يدل على عظم حفظه وسيلان ذهنه<sup>(٣)</sup>. وكان - على حد قول صاعد - أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلم الإسلام، وأوسعهم معرفة مع توسعة في علم اللسان، ووفور حظه من البلاغة والشعر ومعرفة بالسنن والآثار<sup>(٤)</sup> ويقول عنه الحميدى: «كان أبو محمد حافظاً للحديث وفقهه مستنبطاً للأحكام من الكتاب والسنة، متفناً في علوم جملة، عاملاً بعلمه<sup>(٥)</sup>» لقد كان - ﷺ - «لا يدع المثابرة على العلم والمواظبة على التأليف، والإكثار من التصنيف حتى كمل من مصنفاته في فنون من العلم وقر بغير<sup>(٦)</sup>» ولذلك يخبر ابنه الفضل المكنى أبا رافع: أن مبلغ تواليه في الفقه والحديث والأصول، والنحل والملل، وغير ذلك من التاريخ والنسب وكتب الأدب

(١) عبد السلام هارون: مقدمة كتاب جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٧ (دار المعارف).

(٢) تذكرة الحفاظ ٤/ ١١٤٦.

(٣) المرجع السابق ٣/ ١١٤٧.

(٤) ابن بشكوال: الصلة ٢/ ٤١٦.

(٥) الحميدى: جذوة المقتبس ص ٣٠٨ وراجع أيضا بغية الملتبس للضبي ص ٤١٥.

(٦) ياقوت: معجم الأدباء ١٢/ ٢٤٩.

والرد على المعارض نحو أربعمئة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة.. وهذا شيء ما علمناه لأحد ممن كان في دولة الإسلام قبله إلا لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، فإنه أكثر أهل الإسلام تصنيفا..<sup>(١)</sup> والحق أن الإمام ابن حزم حقيق بهذا الثناء المستطاب، إذ إننا لا نجد بابا من أبواب العلم إلا ضرب فيه بسهم وافر، وتحدث فيه حديث الفاهم الواعي، ويكفي للمنصف أن يقرأ كتابه العظيم «الفصل في المِلل والأهواء والنحل» ليعرف كيف أفاض الله على هذا الرجل من عمله، وأمدّه بالكثير من آلائه وفضله، وإننا لنرجئ الحديث عن ثقافة هذا الشيخ في كتابه هذا إلى مكانها الآتى من البحث، آمليين أن تكشف دراستنا للكتاب عما كان عليه صاحبه من إحاطة علمية شاملة شهد له بها الأعداء والأصدقاء على السواء..

#### ٨ - وظائفه في الدولة:

كان ابن حزم وفيما للبيت الأموي.. يعمل على انبعاث الدولة الأموية ويرى أحقيتها في الخلافة دون غيرها من الناس.. وقد كان ذهابه للمرية تعبيرا عن هذه الرغبة، إذ كان «خيران العامري» يظهر ميلا لبني أمية في أول أمره<sup>(٢)</sup>. بيد أن العيش لم يطب له في تلك المدينة - المرية - إذ اتهمه «خيران» واليها من قبيل الحموديين سنة ٤٠٧ هـ بالعمل للبيت الأموي لإعادة السلطان إليه. ويقول ابن حزم في هذا الصدد.. «وظهرت دولة الطالبية وبويح على بن حمود الحسنى، المسمى بالناصر بالخلافة، وتغلب على قرطبة وتملكها، واستمر في قتاله إياها بجيوش المتغلبين والثوار فى أقطار الأندلس.. وفى أثر ذلك نكبنى خيران، إذ نقل إليه من لم يتق الله - ﷻ - وقد انتقم الله منهم - عنى وعن محمد بن إسحاق صاحبى، أنا نسعى فى القيام بدعوة الدولة الأموية، فاعتقلنا عند نفسه شهرا، ثم أخرجنا على جهة التعريب، فصرنا إلى حصن القصر<sup>(٣)</sup>، ولقينا صاحبه أبو القاسم

(١) ابن بشكوال: الصلة ٤١٦ / ٢.

(٢) راجع عبد الحلیم عویس: ابن حزم مؤرخا ص ٥٣.

(٣) حصن القصر: قرية صغيرة، ما تزال قائمة حتى يومنا هذا فى مقاطعة أشبيلية (الظاهر مكى=

عبد الله بن محمد بن هذيل التَّجِيبِي، المعروف بابن المقفل. فأقمنا عنده شهورا في خير دار إقامة، وبين خير أهل وجيران، وعند أجل الناس همة، وأكملهم معروفا، وأتمهم سيادة، ثم ركبنا البحر قاصدين بلنسية عند ظهور أمير المؤمنين المرتضى عبد الرحمن بن محمد، وساكناه بها<sup>(١)</sup> ولسنا في مجال تحقيق هذه التهمة التي نسبت إلى ابن حزم وأودت به إلى السجن، والتي يظهر لنا من أسلوب صاحبها - الذي لم ينفها عن نفسه - أن لها نصيبا من الواقع.. وإنما الذي يعيننا في هذا المقام أن ابن حزم بعد هذا التغريب والنفى الذي لاقى فيه من إخوانه العون والإكرام - ذهب إلى بلنسية عندما علم بظهور أمير المؤمنين عبد الرحمن بن محمد الأموي الذي لقب بالمرتضى وأخذ يدعو لنفسه في بلنسية وقد كان المرتضى هذا أصلح من بقى من بنى أمية، ويبدو أن ابن حزم كان يأمل أن تنبعث الدولة الأموية على يديه وتظل بلاد الأندلس من جديد لذلك أخذ يعاونه حتى صار وزيرا من وزرائه<sup>(٢)</sup>. بيد أن أمره لم يبق طويلا فاغتيل المرتضى وانتهى أمره، ووقع ابن حزم في أيدي أعدائه سنة ٤٠٣هـ بعد وفاة أبيه بعام<sup>(٣)</sup>. ثم تولى ابن حزم لعبد الرحمن بن هشام ابن عبد الجبار الذي بايعه أهل قرطبة بالخلافة في رمضان سنة ٤١٤هـ ولقبوه بالمستظهر<sup>(٤)</sup>، وكان عمره حين ذاك اثنتين وعشرين سنة، وكان رحب الصدر رقيق الطبع شاعرا ناثرا خطيبا بليغا، ولم تدم وزارته تلك أكثر من سبعة وأربعين يوما، إذ ثار على المستظهر ابن عمه المستكفي في طائفة من أرادل العوام، فقتله لثلاث بقين من ذى القعدة من السنة نفسها<sup>(٥)</sup>.

=هامش الطوق).

- (١) ابن حزم: طوق الحمامة ص ١٥٥.
- (٢) هذا رأى بعض الباحثين أمثال الأستاذ سعيد الأفغانى وصاحب دائرة المعارف الإسلامية (مادة ابن حزم) الذين يرون أنه كان وزيرا للمرتضى ولكن الدكتور عبد الحلیم عويس في رسالته عن ابن حزم مؤرخا يرى أنه كان مستشارا كبيرا فحسب ولم يبلغ إلى مرتبة الوزارة (راجع عبد الحلیم عويس ص ٥٤).
- (٣) سعيد الأفغانى: ابن حزم ورسالته في المفاضلة ص ٢٥، وانظر أيضا أبا زهرة ص ٤١.
- (٤) المقرئ: نفع الطيب ص ١ / ٢٠٤.
- (٥) انظر عبد الحلیم عويس ص ٥٤.

وبعد ذلك بسنوات عاد ابن حزم للوزارة أيام هشام بن المعتد بالله بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر الذي تولى الخلافة بين سنتي ٤١٨ هـ، ٤٢٢ هـ<sup>(١)</sup>. وقد كان هذا آخر عهده بالسياسة والوزارة، لقد طلق المناصب إلى غير رجعة. وأقبل على قراءة العلوم وتقييد الآثار والسنن<sup>(٢)</sup>.

ويبدو أن انحراف الحكام وتكالبهم على الدنيا جعل ابن حزم يزهّد في السياسة والاشتغال بها، لذلك نراه بعد أن يذكر في كتابه «نقط العروس» من تسمى باسم مضاف إلى الدولة مثل فخر الدولة، وعماد الدولة، وعضد الدولة، يقول: «... ثم انحرف الأمر واتسع، ثم رذل الأمر بالمشرق والمغرب، حتى تسمى هذه الأسماء السماسرة ورنالات الناس ليرى الله ﷻ عباده هوان ما تنافسوا عليه، وغالوا به، وصح<sup>(٣)</sup> قول رسول الله - ﷺ - حقيق على الله أن لا يرفع الناس شيئاً إلا وضعه الله أو كلاماً هذا معناه.. واستبان أن الحقيقة هي العمل لله ﷻ والعدل في البلاد، والعمل بمكارم الأخلاق وحمل الناس على الكتاب والسنة، فذلك الذي لا يقدر عليه سخيّف ولا يطيقه ضعيف، وبهذا يتبين فضل القوى على الساقط المهين، لا بأسماء يقدر على التسمي بها كل خسيس واهن، والله الأمر من قبل ومن بعد، وحسبنا الله ونعم الوكيل. ولقد كانت دولة عبد الملك وسليمان والوليد وعمر وهشام لا عضد لها وعماد ولا لقب إلا أسماؤهم وكانت قد طبقت الدنيا طاعة واستقامة، والدولة الآن أكثر ما كانت أعضادا وعمدا، وقد طبقت الدنيا ضعفا ومهانة، والله المستعان<sup>(٤)</sup>.

٩- رحلاته:

تعددت رحلات ابن حزم إلى المدن المختلفة من بلاد الأندلس.. وكان أكثر هذه الرحلات يصاحبها القلق والاضطراب، إذ كان مضطرا في كثير من تلك الأسفار ولم

(١) الأفغاني: ابن حزم ص ٢٥

(٢) ياقوت: معجم الأدباء ١٢ / ٢٣٧.

(٣) روى البخاري في صحيحه (٣٨ / ٤) عن أنس رضي الله عنه قال: (كان للنبي ﷺ ناقة تسمى العضباء لا تسبق، فجاء أعرابي على قعود فسبقتها، فشق ذلك على المسلمين حتى عرفه، فقال: حق على الله أن لا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه).

(٤) ابن حزم: نقط العروس: ص ٨٦ تحقيق الدكتور شوقي ضيف.

يكن مختاراً، وإن كان لدينا من الآثار التي تركها لنا أبو محمد ما يدل على رغبة كانت تجيش في نفسه لزيارة المشرق، حيث كانت بغداد قبلة العلوم، وأمنية المتمنى من المفكرين والعلماء لينهلوا من علمها، ويجلسوا إلى شيوخها، ولذلك نرى ابن حزم يصور هذه المشاعر - التي شاعت إرادة الله أن لا تتحقق - بقوله:

ولى نحو أكناف العراق صباية ولا غرو أن يستوحش الكلف الصب  
فإن ينزل الرحمن رحلى بينهم فحينئذ يبدو التأسف والكرب  
هنالك يدري أن للبعد غصة وأن كساد العلم آفته القرب<sup>(١)</sup>

ومن المدن الأندلسية التي رحل إليها - ابن حزم - وكان لها أثر بالغ في حياته الفكرية كما سنوضح في خاتمة هذا الفصل - مدينة المرية التي ذهب إليها عندما وقع انتهاب جند البربر لمنازل ابن حزم في الجانب الغربي بقرطبة وسكنى مدينة المرية<sup>(٢)</sup>.

بيد أن المقام لم يطب له فيها، إذ كان اتجاه ابن حزم السياسى - موالاة الأمويين - يثير له المتاعب ويخلق حوله جوا من الريبة يحول دون راحة باله ويحجب عنه كل هدوء، ومن ثم لم ينعم بالاستقرار فى المرية إلا ثلاث سنوات اعتقل بعدها عند «خيران» - حاكم المدينة - بضعة أشهر<sup>(٣)</sup>.. هاجر بعدها إلى حصن القصر<sup>(٤)</sup> فى الجانب الغربى من الأندلس حيث أقام عند صاحبه أبو القاسم بن هذيل شهورا هادئة مستقرة.. ومن خلال كتب ابن حزم يتبين لنا أنه سافر بعد ذلك إلى بلنسية<sup>(٥)</sup> لأغراض سياسية، ثم فى نهاية هذا الشوط الأول عاد إلى قرطبة.

(١) الحميدى: جذوة المقتبس ص ٣١٠. راجع معجم الأدياء ١٢/٢٥٥.

(٢) طوق الحمامة ص ١٥٥.

(٣) المرجع السابق ص ١٥٦.

(٤) حصن القصر: قرية صغيرة، ما تزال قائمة حتى يومنا هذا فى مقاطعة أشبيلية (هامش الطوق ص

١٥٦).

(٥) بلنسية: مدينة، ومحافظة كبيرة فى شرقى أسبانيا، على شاطئ البحر المتوسط. (دكتور الطاهر

مكى هامش الطوق ص ١٥٦).

وقد كان شعور ابن حزم في هذه الرحلات أنه المطارِد المبعَد عن الأهل والوطن ظلما وعدوانا، ولذلك نجده يقول في كتابه «طوق الحمامة»:

أنت تعلم أن ذهني منقلب وبالي مضطرب بما نحن فيه من نبو الديار والجلاء عن الأوطان، وتغير الزمان، ونكبات السلطان، وتغير الأخوان، وفساد الأحوال وتبدل الأيام، وذهاب الوفر والخروج عن الطارف والتالد، واقتطاع مكاسب الآباء والأجداد، والغربة في البلاد، وذهاب المال والجاه، والفكر في صيانة الأهل والولد. واليأس عن الرجوع إلى موضع الأهل، ومدافعة الدهر، وانتظار الأقدار، لا جعلنا الله من الشاكين إلا إليه، وأعادنا إلى أفضل ما عودنا، وإن الذي أبقى لأكثر مما أخذ، والذي ترك أعظم مما تحيف، ومواهبه المحيطة بنا، ونعمه التي غمرتنا لا تحد ولا يؤدي شكرها، والكل منحه وعطاياه، ولا حكم لنا في أنفسنا ونحن منه وإليه متقلبن، وكل عارية راجعة إلى معيرها، وله الحمد، أولا وآخرا، وعودا وبدءا<sup>(١)</sup>.

أما البلاد التي رحل إليها في النصف الأخير من حياته بعد أن ترك الوزارة وتفرغ للعلم فقد كانت بسبب حدته في الرأي - أو بتعبير ابن حيان - عدم معرفته بسياسة العلم، إذ كان يصك معارضه صك الجندل حتى استهدف إلى فقهاء وقته، فمالوا إلى بغضه ورد أقواله فأجمعوا على تضليله، وشنعوا عليه، وحذروا سلاطينهم من فتنته... وطفق الملوك يقصونه عن قريتهم، ويسيرونه عن بلادهم<sup>(٢)</sup>.. «فذهب أول أمره إلى شاطبة، ثم انتقل إلى القيروان بالمغرب حيث كان يناقش علماءها، ويتبادل معهم وجهات النظر المختلفة، ويخبرنا ابن حزم عن ذلك فيقول: «ولقد سألتني يوما أبو عبد الله محمد بن كليب من أهل القيروان أيام كوني بالمريّة، وكان طويل اللسان جدا مثقفا للسؤال في كل فن<sup>(٣)</sup>» وقد رحل - أيضا - إلى ميورقة التي كانت تخضع لولاية أحمد بن رشيق، ويصفه المؤرخون بأنه كان يميل إلى الحديث

(١) طوق الحمامة ص ١٩٧.

(٢) ابن بسام الذخيرة المجلد الأول القسم الأول ص ١٤١.

(٣) طوق الحمامة ص ٧٣.

والفقه<sup>(١)</sup>. وذو هيبة مفرطة وتواضع وحلم عرف به مع القدرة<sup>(٢)</sup>.. وفي ميورقة حدثت مناظرات بينه وبين أبي الوليد الباجي الذي ارتحل إلى المشرق وتعلم فيه علم الكلام والجدل والفقه والحديث وغيره ثم عاد إلى الأندلس فوجد «لكلام ابن حزم طلاوة إلا إنه كان خارجا عن المذهب ولم يكن بالأندلس من يشتغل بعلمه، فقصرت ألسنة الفقهاء عن مجادلته وكلامه، واتبعه على رأيه جماعة من أهل الجهل (!!) وحل بجزيرة ميورقة فرأس فيها واتبعه أهلها، فلما قدم أبو الوليد كلموه في ذلك فدخل إليه وناظره، وشهر باطله، وله معه مجالس كثيرة<sup>(٣)</sup>» وقد استطاع الباجي إجلاء أبي محمد عن ميورقة بعد أن استعان عليه بأمرها الذي تولى بعد ابن رشيق، وحرص عليه الجماهير.. ولم تذكر كتب التاريخ ولا كتب التراجم إلى أين غادرها، وإن كان بعض الباحثين<sup>(٤)</sup> يرى أنه ذهب إلى إشبيلية حتى استقر به المقام في نهاية المطاف إلى قريته، التي كانت ملكه وملك سلفه من قبل.. وهناك أمضى بقية حياته حتى لقي ربه.. أما عن أثر هذه الرحلات في تكوين ابن حزم باعتباره مؤرخا للأديان فهذا ما سنذكره في موضعه من تلك الدراسة بإذن الله.

#### ١٠ - علاقة ابن حزم بمعاصريه:

إن الذي يطالع سيرة الإمام ابن حزم يأسى للآلام والمحن التي واجهها من كثير من معاصريه، إن عمل الكثيرون من الفقهاء والحكام على حربه وتضليله، وقليل أولئك الذين أنصفوا الرجل وعرفوا له مكانته وعلمه، وهذه الثورة التي ظلت مشتعلة حتى لقي الشيخ ربه.. والتي تولى كبرها بعض الفقهاء وأدعياء العلم مردها - في نظرنا - للأسباب الآتية:

(أ) قسوة ألفاظه، وجرأته على الأئمة، فقد كان - ﷺ - يصك برأيه معارضه صك الجنادل، ويرميه به رمية تشبه انشاق الخردل، حتى نفرت عنه القلوب، فمال

(١) ابن الأبار: الحلة السیراء ١٢٨ / ٢.

(٢) الحمیدی: الجذوة ١٢٣ وانظر - أيضا - المرجع السابق.

(٣) المقرئ: نفع الطيب ١ / ٣٥٤.

(٤) عبد الحليم عويس: ابن حزم ص ٥٧.

هؤلاء عليه يشنعون ويكفرون، ويحذرون السلاطين والعوام من آرائه حتى أقصوه عن قربهم، وسيروه عن بلادهم<sup>(١)</sup>..

(ب) عدم ممالأته للحكام، ورفضه لقبول هداياهم كغيره من الفقهاء استعلاء بعلمه وخلقه، واستنكارا لسلوكلهم وانحرافهم، حيث رأهم يستعين بعضهم على بعض بالنصارى، ويأتون من الأعمال والأخلاق ما تأباه شرعة الإسلام، وقد أعطى الله ابن حزم خلقا قويا جعله ينطق بالحق ولا يجارى أحدا من الناس.. وقد سجل ابن حزم - وهو المؤرخ - مهازل الولاة فى عهده<sup>(٢)</sup> - دون مجاملة - وشكى إلى الله - سبحانه - تخريبهم لدينهم وتعميرهم لدينهم<sup>(٣)</sup>.. ولا شك أن هذا الموقف أوجد جفوة بينه وبين الحكام، وكان من أسباب عداوتهم الشديدة للشيخ - رحمه الله - مما جعلهم يعملون على تشويه سمعته ونفيه واضطهاده، والتضييق عليه ما وجدوا إلى ذلك سبيلا..

(ج) تركه لمذهب مالك - ﷺ - وهو مذهب أهل الأندلس فى عصره، واعتناقه لمذهب الشافعى أولا ثم تركه إلى القول بالظاهر وعدم تقليد إمام من الأئمة، وقد كان ذلك سببا لعداوات وخصومة بينه وبين الناس لم تهدأ حتى بعد أن فارق الدنيا وواراه الثرى..

(د) موقفه من اليهود والنصارى دفاعا عن عقيدته، وكشفا لزيغ الأديان الأخرى وبيان ما فى كتبها من ضلال وكذب، ليثبت أنها من صنع البشر، وأنها لا يمكن أن تكون من لدن حكيم عليم - وقد كان للجالية اليهودية فى عصره مكانة عند الساسة استطاعوا معها أن يصلوا إلى أرقى المناصب فى الدولة، ويكيدوا للمسلمين بتشويه أفكارهم والهجوم على مقدساتهم، ووضع العقبات أمام الداعين إلى الله وخلق التهم حولهم، ولا يخفى علينا حيل اليهود وأخلاقهم فى كل زمان ومكان..

(١) ياقوت: معجم الأدياء ١٢ / ٢٤٨ (بتصرف وتلخيص).

(٢) اقرأ مثلا مبحث (أخلاقه لم يقع فى الدهر مثلها) فى كتابه فقط العروس.

(٣) راجع خاتمة كتاب «الرد على ابن النغريلة اليهودى» لابن حزم.

وممن اشتهر بعدائه لأبي محمد بن حزم الإمام أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي الذي رحل إلى المشرق والتقى بالعلماء، ولبث في رحلته ثلاثة عشر عاما ينتقل بين العراق والحجاز، فلما عاد من رحلته هذه وجد لكلام ابن حزم طلاوة، وقد عجز الفقهاء من المالكية عن مجادلته وكلامه، فدخل إلى ميورقه حيث ناصره العامة وأدعياء العلم على ابن حزم حتى أخرجوه منها<sup>(١)</sup>.. ورحم الله ابن حزم لم تمنعه الخصومة التي قامت بينه وبين الباجي أن يوفيه حقه، بل قال فيه: «لو لم يكن لأصحاب المذهب المالكي بعد عبد الوهاب إلا مثل أبي الوليد الباجي لكفاهم<sup>(٢)</sup>».

وممن تحامل على الإمام ابن حزم ولم ينصفه الإمام أبو بكر بن العربي صاحب كتاب «العواصم من القواصم» لقد أكثر من هجومه عليه، ووصفه بصفات وعبارات يترفع عن ذكرها آحاد العقلاء فضلا عن الصفوة من العلماء<sup>(٣)</sup>.. وقد غضب الإمام الذهبي - رحمته الله - لهذا التحامل والجور وعلق على عبارات أبي بكر بن العربي بقوله: «قلت: لم ينصف القاضي أبو بكر - رحمه الله - شيخ والده في العلم، ولا تكلم فيه بالقسط، وبالغ في الاستخفاف به، وأبو بكر على عظمته في العلم لا يبلغ رتبة أبي محمد ولا يكاد، فرحمهما الله وغفر لهما<sup>(٤)</sup>».

(١) نفع الطيب ١ / ٣٥٤.

(٢) الموضوع السابق.

(٣) راجع تذكرة الحفاظ ٣ / ١١٤٩.

(٤) ذكرت الدكتورة سهير فضل الله أبو وافية المدرسة بقسم الفلسفة بكلية البنات جامعة عين شمس في رسالتها «ابن حزم وآراؤه الفلسفية والكلامية» ص ٩٧: أن أبا بكر بن العربي تراجع عن موقفه العدائي من ابن حزم، واعتنق مذهبه الظاهري، وتقول: «وله رؤية قصها علينا في فتوحاته المكية إذ قال «رأيت رسول الله - ﷺ - في المنام، وقد عانق أبا محمد بن حزم فغاب الأول في الآخر فلم تر إلا واحدا وهو رسول الله - ﷺ - وهذه غاية الوصلة» - الفتوحات المكية ١ / ٥١٩ - وأقول هذا خطأ واضح، لأن هذه الرؤية لابن عربي الصوفي وكتابه «الفتوحات المكية» أشهر من الشمس وقد قام بتحقيقه الأستاذ عثمان أمين، وقد كان ابن عربي هذا من العجبيين بأبي محمد بن حزم، المعتنقين لمذهبه في الفروع، برغم قوله بالباطن في العقائد والأصول، وقد كان في القرن السابع فهو ليس معاصرا لابن حزم بخلاف أبي بكر بن العربي صاحب كتاب «العواصم من القواصم» الذي كان معاصرا لابن حزم وظل على عدائه للشيخ إلى أن لقي الله.

وقد كان لهذا الفريق أثر كبير في كتابات ابن حزم وبخاصة كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل وغيره من كتب الخلاف، ومهما يكن من أمر فلم تكن هذه الجفوة التي وقعت بين ابن حزم وهذا الصنف من الفقهاء شرا على الإطلاق بل كانت مبعثا لتراث ضخم، وأنشطة علمية نضرت وجه التاريخ، وساهمت في الدفاع عن عقيدة الإسلام وتراث المسلمين..

وبجانب هذا النمط من المتحاملين نرى طرازا آخر من الناس، أخذوا أنفسهم بقول الحق فذكروا المحاسن والهفوات، من هؤلاء أبو مروان بن حيان الذي قال عن ابن حزم - بعد أن ذكر هفواته - «... إلى أن يحرك بالسؤال فيفجر منه بحر علم لا تكدره الدلاء<sup>(١)</sup>» ولذلك يعلق الإمام الذهبي - عقب روايته لكلام ابن حيان - بقوله: هذا القائل منصف فأين كلامه من كلام أبي بكر بن العربي، وهضمه لمعارف ابن حزم<sup>(٢)</sup>».

وبعد أن أورد ابن حيان شعره - ابن حزم - في نعي نفسه قال: «ويا لبدائع هذا الحبر على غرره، ما أوضحها على كثرة الدافنين لها، والطامسين لمحاسنها، وعلى ذلك فليس ببدع فيما أضيع منه، فأزهد الناس في عالم أهله،.... والحسد داء لا دواء له<sup>(٣)</sup>».

وقد كان لصاحبنا أصدقاء تربطه بهم صلات الحب والمودة، وقد عرف ابن حزم بالإخلاص والوفاء، ولعل أشهر هؤلاء أبو عامر أحمد بن شهيد صاحب كتاب «التوابع والزوابع» وأحد مشاهير الإسلام في الأدب والشعر، وقد تولى الوزارة مع صديقه ابن حزم للمستظهر، وعملا معا في خدمة المعتد بالله..

وفى المرض الذي مات فيه ابن شهيد أرسل إلى ابن حزم قصيدة تفيض رقة وإخلاصا ونبلا جاء فيها: <sup>(٤)</sup>

(١) تذكرة الحفاظ ٣/ ١١٥٢.

(٢) السابق.

(٣) معجم الأدباء ١٢/ ٢٥٤ والأفغانى: ابن حزم ورسالته في المفاضلة ١٤٣ - ١٤٤.

(٤) راجع ترجمة ابن شهيد في نفح الطيب ١/ ١٧٧.

كأنى وقد حان ارتحالى لم أفرز      قديما من الدنيا بلمحة بارق  
فمن مبلغ عنى ابن حزم وكان لى      يدا فى ملماتى وعند مضايقتى؟  
عليك سلام الله إنى مفارق      وحسبك زاداً من حبيب مفارق<sup>(١)</sup>

\*\*\*

## ١١ - صفاته وأخلاقه

جمع ابن حزم من كريم الشماثل، وجميل الصفات ما جعله الإنسان النبيل والعالم الذى فاضت بحوثه وتناقلت الأجيال كتبه.

١ - وأول هذه الصفات تلك الحافظة القوية التى سيطر بها على مقالات الآخرين، واستوعب أدلتهم وبراهينهم، واستطاع أن يحفظ سير الأولين ويربط علومه التى استحفظها ووعاها بعضها ببعض فى تناسق فكرى اختص به من بين معاصريه من العلماء والفقهاء<sup>(٢)</sup>.

٢ - كما عرف ابن حزم بتدينه وصلاحه، ولقد أحسن ابن بشكوال عندما أراد أن يجمع أخلاقه فى كلمة واحدة فقال «... كان عاملاً بعلمه»<sup>(٣)</sup> لقد كان ﷺ متواضعا لله، شاكرا لأنعمه يقول فى أدب العالم «وإن أعجبت بعلمك فاعلم أنه لا خصلة لك فيه، وأنه موهبة من الله مجردة وهبك إياها ربك تعالى فلا تقابلها بما يسخطه فلعله ينسبك ذلك بعله يمنحك بها تولد عليك نسيان ما علمت وحفظت، ولقد أخبرنى عبد الملك ابن طريف وهو من أهل العلم والذكاء واعتدال الأحوال وصحة البحث أنه كان ذا حظ من الحفظ عظيم، لا يكاد يمر على سمعه شىء يحتاج إلى استعادته، وأنه ركب البحر مرة، فمر به هول شديد أنساه أكثر ما كان يحفظ وأخل بقوة حفظه إخلالا شديدا لم يعاوده ذلك الذكاء بعد، وأنا أصابتنى علة فأفقت منها، وقد ذهب ما كنت أحفظ

(١) ديوان ابن شهيد بتحقيق يعقوب زكى ص ٢٣٤ دار الكتاب العربى للطباعة والنشر بالقاهرة) بدون تاريخ.

(٢) راجع الأستاذ محمد أبو زهرة: ابن حزم ص ٦٧.

(٣) الصلة ٢ / ٤١٦.

إلا ما لا قدر له فما عاودته إلا بعد أعوام، واعلم أن كثيرا من أهل الحرص على العلم يُجِدُّون في القراءة والإكباب على الدرس والطلب، ثم لا يرزقون منه حظا، فليعلم ذو العلم أنه لو كان بالإكباب وحده لكان غيره فوقه فصح أنه موهبة من الله تعالى.. فأى مكان للعجب ها هنا. ما هذا إلا موضع تواضع، وشكر لله تعالى، واستزادة من نعمة واستعاذة من سلبها..<sup>(١)</sup>».

٣ - ومن أبرز صفاته - ﷺ - صفة الوفاء الذي جعله يعيش وفيها لدينه وإخوانه ولشيوخه، ولكل من اتصل به، بل كان وفيها حتى للجماد فهو يسأل الذاهبين إلى قرطبة عن نُورِهِ وما جرى لها، وقد كانت مغانيه وكان فيها أنس نفسه، وإنه ليقول في ذلك «لا أقول قولي هذا ممتدحا، ولكن آخذ بأدب الله ﷻ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (سورة الضحى: ١١) لقد منحني الله - ﷻ - من الوفاء لكل من يمت إلى بلقية واحدة... ووهبني من المحافظة لمن يتذم مني ولو بمحادثة ساعة، وما شيء أثقل على من الغدر، ولعمري ما سمحت نفسي قط في الفكرة في إضرار من بيني وبينه أقل ذمام، وإن عظمت جريرته، وكثرت إلى ذنوبه، ولقد دهمني من هذا غير قليل فما جزيت على السوءى إلا بالحسنى والحمد لله على ذلك كثيرا<sup>(٢)</sup>».

٤ - أما عن عفته وطهره فحسبنا منها أنه عاش في القصر بين الجوارى والحسان ولكنه مع ذلك لم يقرب معصية، ولم يباشر فاحشة ويقول في ذلك: «يعلم الله وكفى به عليما، أنى برىء الساحة سليم الإدام، صحيح البشرة، نقى الحجة، وأنى أقسم بالله أجل الأقسام أنى ما حللت منزرى على فرج حرام قط، ولا يحاسبني ربي بكبيرة الزنا مذ عقلت إلى يومي هذا<sup>(٣)</sup>».

٥ - وما قيل عن حدة ابن حزم، وشدته في الرد على الخصوم، يمكن أن نجد عذره في ذلك ما قاله هو عن علة الطحال التي أصيب بها، وأنها كانت سبب ضجره وضيق

(١) مداواة النفوس.

(٢) طوق الحمامة ١١٢ - ١١٣.

(٣) المرجع السابق ص ١٦٥.

خلقه وقلة صبره ونزقه<sup>(١)</sup>.. فضلا عن الجفوة التي لاقاها من الكثيرين في عصره،  
والكيد الذي بلغ إلى إحراق كتبه، وإن كنا نود لو ارتفع عليها وسما فوقها، بيد أن  
الكمال لله وحده، والله الأمر من قبل ومن بعد..

١٢ - وفاته:

توفى الإمام ابن حزم - كما يذكر ابن خلكان - في آخر نهار الأحد لليلتين بقيتا  
من شعبان سنة ست وخمسين وأربعمائة (٤٥٦ هـ) في بادية «لبله» وقيل إنه توفى  
في «منت ليشم» وهي قرية ابن حزم رحمه الله<sup>(٢)</sup>.. فكان عمره إحدى وسبعين وعشرة  
أشهر وتسعة وعشرين يوما<sup>(٣)</sup>..

وروى أبو بكر محمد بن طرخان التركي قول الإمام أبي محمد عبد الله بن العربي  
أن ابن حزم توفى بقريته - وهي على خليج البحر الأعظم - في جمادى الأولى سنة  
سبع وخمسين<sup>(٤)</sup>.

وهذه الرواية التي تنص على أنه توفى سنة سبع وخمسين تخالف ما عرف بين  
المؤرخين من أن ابن حزم توفى يوم ٢٨ من شعبان عام ٤٥٦ هـ، ولذلك نجد الإمام  
ابن كثير يجعل وفاة أبي محمد من حوادث سنة ست وخمسين وأربعمائة<sup>(٥)</sup>.  
ونص ابن العماد على أن ابن حزم توفى ليومين بقيا من شعبان سنة ست وخمسين  
وأربعمائة من اثنتين وسبعين سنة<sup>(٦)</sup>.

وهذا هو التاريخ الذي أجمع عليه غالبية المترجمين فقالوا إن ابن حزم توفى يوم  
٢٨ من شعبان عام ٤٥٦ هـ الموافق ١٠٦٤م.

(١) مداواة النفوس.

(٢) وفيات الأعيان ١٣ / ٣.

(٣) ابن بشكوال: الصلة ٣٩٦ / ٢.

(٤) الذهبي: تذكرة الحفاظ ٣ / ١١٥٤ (ط حيدر أباد - الدكن).

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية ٩١ / ١٢.

(٦) ابن العماد: شذرات الذهب ٢٩٩.

وكأنما كان - رحمه الله - ينعى نفسه حين قال:

كأنك بالزوار لى قد تبادروا      وقيل لهم: أودى على بن أحمد  
فيارب محزونٍ هناك وضاحكٍ      وكم أدمع تُذرى وخدٌ مُخَدِّرٍ  
عفا الله عنى يوم أرحل ظاعنًا      عن الأهل محمولا إلى ضيق مَلَحَدٍ  
فَوَارًا حَتَّى إن كان زادى مقدما      ويا نصبى إن كنت لم أتزوِّد<sup>(١)</sup>

وبوفاته شعر الناس بإخلاصه وجهاده وعلمه، وقد ضيقوا عليه في حياته، فعاش طوفا في البلاد لا يستقر به مُقام ولا يهنأ له عيش، ولقد أراد الله أن ينصف هذا العالم بعد موته، وقد عاش غريبا بعلمه وخلقه في حياته، فوقف المنصور الموحدى ثالث خلفاء الموحدين على قبره خاشعا وهو يشهد شهادة التاريخ:

«كل الناس عيال على ابن حزم».

١٣ - أثر حياة ابن حزم فى كتابه الفصل:

نشأ ابن حزم نشأة فيها سعة ونعيم وافر - كما أسلفنا القول - ولا ريب أن المال خادم للعلم وعون على تحصيله، كما أن استقرار المرء وراحة نفسه بما منحه الله من آلاء ونعم من أكبر العوامل على ترتيب الذهن وكثرة الإنتاج، وقد كان صاحب كتاب «الفصل» وزيرا، تربى في بيت الوزارة، وتلك حالة تمكنه من تحصيل الكتب وتهيئ له كثيرا من أسباب العلم والإجادة فيه.. كما أن المحن والصعاب التى مر بها ابن حزم بعد الراحة والنعيم قد يكون لها أثر فى تغيير لهجته وقسوة عباراته.. ونحن لا نستبعد أن تلك الفتن التى أصابت بلاد الأندلس وعمت الناس وخصت صاحبنا - كما يقول - كانت سببا فيما تحدث عنه من مرض شديد، وألم فى الطحال، ولد فيه ضجرا وضيقا، وقلّة صبر.. خصوصا وأن الطب الحديث أثبت أن كثيرا من الأمراض الباطنية وغيرها مردها للآزمات الاجتماعية، والمتاعب النفسية التى يعانى منها الإنسان..! ولا ريب أن كتاب الفصل كتب فى هذه المرحلة من حياته بعد أن أصيب بهذا الداء بخلاف الكتب التى ألفها فى المراحل الأولى من حياته..

(١) معجم الأدباء ١٢ / ٢٥٣ - ٢٥٤.

أما عن شيوخ ابن حزم فقد كان لبعضهم أثر في صقل فكره، والعون على تحديد وجهته، خصوصا وأن الصلة التي كانت تربط الأستاذ بمريديه من الطلاب كانت من القوة والقرب - غالبا - بحيث تترك بصماتها على تفكيرهم واتجاهاتهم.. ولقد ذكر «الضبي» أن مسعود بن سليمان بن مفلت أبو الخيار كان يميل إلى الاختيار والقول بالظاهر<sup>(١)</sup>، فهل اقتبس ابن حزم منهجه الظاهري من أستاذه هذا؟؟ إن العقل لا يستبعد أن يكون زهد الشيخ وما عليه من علم وخلق من العوامل التي أثارته الطريق أمام صاحبنا ليسلك هذا المنهج الذي كان له أثر بالغ في كتابه «الفصل» وفي سائر كتبه.. كما أن قدرة ابن حزم في الجدل والتي ظهرت آثارها في كتابنا هذا، أخذ شيئا منها عن أستاذه أبي القاسم عبد الرحمن بن أبي يزيد المصري الذي ذكر المؤرخون<sup>(٢)</sup> أن ابن حزم درس عليه الجدل والكلام..

ونعتقد أن الثقافة الواسعة للإمام انعكست على كتابه الفصل، إذ إن هذه الموسوعة التي حوت أديان العالم ونحله، ما كانت لتظهر - في هذا الثوب القشيب - لولا تلك الثقافة التي تميز بها ابن حزم..

أما عن رحلات ابن حزم فقد كانت للفترة التي قضاها الرجل في (المريّة) أهمية كبيرة على حياته العلمية باعتباره إماما من أئمة المِلل والنحل.. إذ كانت تلك المدينة تموج بتيارات فكرية متعددة.. ونحن نقرأ في كتاب «الطوق» عن الطبيب اليهودي الذي يدعى إسماعيل بن يونس وكان ابن حزم يجلس في دكانه في لمة من الأصحاب<sup>(٣)</sup>.

ويبدو أنه كانت بينهما مناقشات وجهت نظر ابن حزم إلى دراسة الأديان والنحل، حتى أصبح فيها حجة ومرجعا.. والذي يقرأ الدراسة التي قدمها لنا ابن حزم في كتابه «الفصل» وناقش فيها كتب اليهود تتضح له تلك الثقافة الواسعة،

(١) بغية الملتمس ٤٦٧.

(٢) راجع طوق الحمامة ١٠٢.

(٣) ابن حزم: طوق الحمامة ٣٥.

والإحاطة الدقيقة بكتب هؤلاء القوم، ولعل الأصل في هذا يرجع إلى مجلسه في دكان إسماعيل بن يونس هذا، وكان ما تزال تعرض فيه هذه المسألة أو تلك من مسائل الدين اليهودي، فتثور حولها المناقشة ويحتمد الجدل، فيدعوه ذلك إلى البحث، وإدمان المراجعة والدرس حتى أصبحت هذه الناحية من نواحي علمه من أشد ما يلفت النظر ويدعو إلى التعجب، وحتى أصبحت مجالسه مع اليهود موضع تنويه العلماء<sup>(١)</sup>.

وإن إتقانه لهذه الناحية ظاهر في هذه العبارات الساخرة التي كتب بها إليه ابن عمه أبو المغيرة حين نشبت الخصومة بينهما: «ونسيت أبا محمد حاشيتك وشيعتك، التي صرت رئيس مدارسهم، وكبير أحراسهم، تحدثهم عما كان فيهم من العبر، وتخبرهم بما تعاقب عليهم من الصفا والكدر، فتارة عن السامري والعجل، وتارة عن القمل والنمل، وطورا تبكيهم بحديث التيه، وطورا تضحكهم بقوم جالوت وذويه، حتى كأن التوراة مصحفك، وبيت الحزان معتكفك<sup>(٢)</sup>».

وفي هذه المدينة - أيضا - جادل الكاتب اليهودي المعروف إسماعيل بن النغريلة سنة أربع وأربعمئة كما جاء في كتاب الفصل<sup>(٣)</sup>. وتعيين هذه السنة يُبين لنا أن هذه المناظرة كانت في المرية.. وإسماعيل بن النغريلة هذا أحد الشخصيات اليهودية الكبيرة في الأندلس الذي أتيح له بعد أن يكون صاحب السلطان المطلق في غرناطة بغلبته على أميرها باديس بن حبوس، وكان صاحب مطامح سياسية كبيرة حتى «طلب أن يقيم لليهود دولة» - كما يقول ابن عذارى - مما انتهى بقتله سنة تسع وخمسين وأربعمئة<sup>(٤)</sup>.

ومما ذكره ابن بسام أنه «ألف كتابا في الرد على الفقيه أبي محمد بن حزم، وجاهر بالكلام في الطعن على ملة الإسلام<sup>(٥)</sup>» ومن ذلك نتبين أي رجل كان ابن النغريلة

(١) انظر معجم الأدباء ٢٥١ / ١٢ وانظر - أيضا - طه الحاجري: ابن حزم ٨٨ - ٨٩.

(٢) الذخيرة، القسم الأول، المجلد الأول ١٣٧.

(٣) الفصل ١ / ١٥٢.

(٤) البيان المغرب ٣ / ٢٦٦.

(٥) الذخيرة، القسم الأول، المجلد الثاني ٢٦٩.

هذا في الاعتداد بدينه، والمجاهرة برأيه مع علم واسع وقوة في الجدل، كما يصفه ابن حزم بأنه أعلمهم وأجدلهم<sup>(١)</sup>. ولعل صلته به سنة ٤٠٤ هـ كانت وهو شاب في نحو سن صاحبنا ابن حزم إذ ذاك، ولكنه كان شابا نشأ على الثقافة اليهودية وعلى التعصب لها، وكانت منزلة أبيه يوسف عند حبوس صاحب غرناطة، وما أتيح له بهذه المنزلة من أن يعلى من شأن اليهود، حتى يستطيلوا على المسلمين مما جعله حريصا على إبراز مقومات هذه اليهودية، وتحصيل التراث الإسرائيلي والمباهاة به، والمناظرة فيه<sup>(٢)</sup>.

فلا ريب أن صلته بابن حزم في ذلك الوقت واجتماعه في مجالس المناظرة كان من الحوافز القوية التي حفزت صاحبنا على تحصيل تلك الألوان المختلفة من المعارف اليهودية، مع مقارنتها وتعمقها، حتى بلغ منها ذلك المبلغ، فهذه ناحية من النواحي التي أتيحت لابن حزم في المرية، وبدأ بها يمارس الجدل والمناظرة ممارسة جديدة<sup>(٣)</sup>.

هذا عن رحلاته وأهميتها لموضوع بحثنا، ولقد عمل ابن حزم واشتغل بالسياسة وضرب فيها بسهم وافر حتى وصل فيها إلى مرتبة الوزارة، وإنها لوظيفة لها من جلال المكانة وكبير الهيبة في نفوس كثير من الناس ما مكن لصاحبنا من تلك الصلة بين طوائف الشعب المختلفة فيتعرف على عقائدهم، ويدرس عن قرب فكرهم.. كما أن الجفوة التي كانت بينه وبين بعض فقهاء عصره، وتحاملهم عليه، وانتقاصهم له أثار كوامن الدفاع في نفسه، فجاء كتاب الفُصل وغيره من كتب العقائد والخلاف، وهو يتحدث عن ذلك فيقول: «ولقد انتفعت بمحك أهل الجهل منفعة عظيمة وهي أنه قد توقد طبعي واحتدم خاطري وحمى فكري وتهيج نشاطي فكان ذلك سببا إلى تواليف عظيمة النفع، ولولا استشارتهم ساكني، واقتداحهم كامنني ما انبعثت لتلك التواليف<sup>(٤)</sup>».

(١) راجع الفصل ١ / ١٥٢.

(٢) طه الحاجري: ابن حزم ٩٠.

(٣) المرجع السابق ٩١.

(٤) ابن حزم: مداواة النفوس ٣٠.

فإذا انتقلنا إلى صفات الإمام - رحمه الله - فإن أثر تلك الصفات يبدو جليا في كتابنا هذا، لقد عرف - ﷺ - بالتدين والإخلاص، ولا ريب أن «إخلاص ابن حزم كان سببا في الصفة التي اشتهر بها، وهي الصراحة في الحق، ينطق بقول الحق لا يهمه رضى الناس أم سخطوا، ويستوى عنده الإيذاء والثناء، مادام الحق يدفعه إلى أن يقول ما قال. ويوجب عليه أن ينطق غير محجم ولا مجمم حتى لقد قال عنه معاصروه<sup>(١)</sup> إنه عرف العلم ولم يعرف سياسة العلم، وقد أجمع الذين أرخوا له على أنه كان شديدا في قوله صريحا في وصف الذين يجادلونه وآرائهم.. أفهذه الصراحة العنيفة التي كان يصك بها خصومه صك الجندل<sup>(٢)</sup> كانت نتيجة لحدته التي اتصف بها، أم كانت لأن سياسته في الحق أوجبت عليه أن يقول ما قال، وإن أضر ذلك به، وادعى عليه أنه لم يعرف سياسة العلم<sup>(٣)</sup>».

وبالجملة: فإن حياة العلماء وما يواجهونه من محن ومنح، تنعكس - غالبا - على تراثهم وما يكتبون.. وإن الكتب التي ألفها أصحابها وهم آمنون مطمئنون تأتي مغايرة لتراث كان صاحبه يعاني ضيق الحياة، وألم الاغتراب والأغلال! كما أن الفكر الذى يصدر عن ثراء خلقى ومادى لا يتشابه مع تراث يعاني صاحبه ضيقا في الرزق أو أزمة في الضمير.. وهكذا فإن الكتب تأتي صورة حية لنفوس أصحابها وما يحملون من صفات ومواهب، وما يطرأ في حياتهم من أمن أو خوف.. ومن قلق أو استقرار..

(١) هو أبو حيان المؤرخ.

(٢) العبارة مقتبسة من كلام أبي مروان بن حيان عن ابن حزم (راجع تذكرة الحفاظ ٣ / ١١٥١).

(٣) أبو زهرة: ابن حزم ٧٣.